

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ }.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا }.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا }.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

** نص حديث الباب :

قال الوليد بن عباد : دَخَلْتُ عَلَى عُبَادَةَ وَهُوَ مَرِيضٌ أَتَخَايَلُ فِيهِ الْمَوْتَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ أَوْصِنِي وَاجْتَنِبْ لِي. فَقَالَ: اجْلِسُونِي. فَلَمَّا أَجْلَسُوهُ قَالَ: يَا بُيَّ إِنَّكَ لَنْ تَطْعَمَ طَعْمَ الْإِيمَانِ، وَلَنْ تَبْلُغَ حَقَّ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرَهُ وَشَرَّهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ وَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدْرِ مِنْ شَرِّهِ؟ قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيَصِيبِكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ. يَا بُيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا

خَلَقَ اللَّهُ: الْقَلَمُ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَاتِبٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، يَا بُيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي».

*** تخريج الحديث :

أخرجه أحمد (22705)، والبخاري في التاريخ الكبير (6 / 92)، وأبو داود (4700)، والترمذي (2155)، وابن أبي عاصم في السنّة (107). قال الترمذي: " هذا حديث حسن

صحيح غريب". والحديث قد صححه الألباني في صحيح الجامع (2018) والسلسلة الصحيحة (133).

-- وقد ورد المعنى العام لحديث الباب في الصحيحين:

(أ) فقد أخرج البخاري في صحيحه - كتاب القدر - (باب جَفَّ القَلَمُ على علم الله)، ثم روى قول أبي هريرة: قَالَ لِي النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «جَفَّ القَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ». (1)

(ب) وروى مسلم عن جابر - رضي الله عنه - أن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سُئِلَ: فِيمَا العَمَلُ اليَوْمَ؟ أفيمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقْلَامُ وَجَرَّتْ بِهِ المَقَادِيرُ، أَمْ فِيمَا نَسْتَقْبِلُ؟ فَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «لَا، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقْلَامُ وَجَرَّتْ بِهِ المَقَادِيرُ». (2)

**** أهم الفوائد المستخرجة من حديث الباب :**

(1) الأولى : ما أوَّل المخلوقات؟

قد ورد في حديث الباب قول النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ: القَلَمَ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ...». للسلف في هذه المسألة قولان:

القول الاول :

قال به ابن جرير الطبري وابن الجوزي، قالوا: أول المخلوقات هو القلم، واستدلوا على ذلك بأدلة: (1) بحديث الباب.

(2) وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «أَوَّلُ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: القَلَمُ، فَأَخَذَهُ بِيَمِينِهِ - وَكَلَّمْنَا يَدَيْهِ يَمِينًا - فَكَتَبَ الدُّنْيَا وَمَا يَكُونُ فِيهَا مِنْ عَمَلٍ مَعْمُولٍ، بَرٌّ أَوْ فَجُورٍ، رَطْبٌ أَوْ يَابِسٌ، فَأَمَضَاهُ عِنْدَهُ فِي الذِّكْرِ»، ثُمَّ قَالَ: «اقْرَءُوا إِنَّ شِئْنَكُمْ { هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [الجناتية: 29]». (3)

القول الثاني:

أن العرش هو أول المخلوقات، وهو قول شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن كثير وشارح الطحاوية، وقال ابن حجر نقلاً عن أبي العلاء الهمداني:

¹ وقد علقه البخاري في كتاب القدر من الصحيح، باب: جَفَّ القَلَمُ على علم الله (122/8)، وقد وصله في كتاب النكاح (5076) - باب ما يُكْرَهُ مِنَ التَّبَتُّلِ وَالْحِصَاءِ.

² أخرجه مسلم (2648).

³ أخرجه الأجرسي في الشريعة (178)، وابن أبي عاصم في السنة (106)، وصححه الألباني في الصحيحة (3136).

إنه قول الجمهور، ومال إليه ابن حجر، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أنه قول كثير من السلف والخلف، واستدلوا على ذلك بأدلة:

(1) حديث البخاري الذي سُئل فيه النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ، فَقَالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «كَانَ اللهُ وَمَا يَكُنُّ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ».(4)

وجه الدلالة: أنه في وقت حدوث الكتابة الأزلية كان العرش على الماء، فدل ذلك على أنه لما خُلِقَ القلم كان العرش مخلوقاً على الماء؛ فدل ذلك على أن العرش هو أول المخلوقات.

**** قال شيخ الإسلام ابن تيمية:**

"ولفظ الحديث المعروف عند علماء الحديث الذي أخرجه أصحاب الصحيح:

«كان الله ولا شيء معه، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء»

وهذا إنما ينفي وجود المخلوقات من السماوات والأرض وما فيهما من الملائكة والإنس والجن، لا ينفي وجود العرش؛ ولهذا ذهب كثير من السلف والخلف إلى أن العرش متقدم على القلم واللوح، مستدلّين بهذا الحديث".(5)

***** يويد ذلك:**

ما صح عن ابن عباس -رضي الله عنهما- موقوفاً:

"«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى اسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ شَيْئاً، فَكَانَ أَوَّلُ مَا خَلَقَ الْقَلَمَ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَكْتُبَ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (6)

وهذا له حكم الرفع؛ لأن هذا من الغيبات التي لا تقال بالرأي.

**** قال شيخ الإسلام ابن تيمية معلقاً على حديث الباب -حديث عبادة بن الصامت- ما نصّه:**

"فهذا القلم خلقه لما أمره بالتقدير المكتوب قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان مخلوقاً قبل خلق السماوات والأرض، وهو أول ما خلق من هذا العالم، وخلق بعد العرش كما دلت عليه النصوص، وهو قول جمهور السلف".(7)

**** وهذا هو الراجح -والله أعلم-، أن العرش أول المخلوقات.**

**** الرد على أدلة القول الأول :**

⁴ أخرجه البخاري (7418) ومسلم (2653)، واللفظ للبخاري.

⁵ مجموع الفتاوى (275/2).

⁶ أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (44)، والآجري في الشريعة (351)، وصححه الألباني في مختصر العلو (ص 95).

⁷ مجموع الفتاوى (213 /18).

ما استدلوها به من قوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ: الْقَلَمُ...»؛
فهذه الأولوية لها توجيهاً: إما أن تُحمل على الأولوية التَّسْبِيَّةِ، أو الأولوية الظَّرْفِيَّةِ.

أ) أما الأولوية النسبية:

فهى ليست أولوية مطلقة، والمعنى: أن القلم ليس هو أول المخلوقات على الإطلاق، بل هو أول المخلوقات بالنسبة إلى ما عدا العرش.

قال شيخ الإسلام:

"وهو -أي: القلم- أول ما خلق من هذا العالم، وخلقته بعد العرش كما دلت عليه النصوص، وهو قول جمهور السلف". (8)

ب) الأولوية الظرفية :

والمعنى: أن الأولوية إنما هي راجعة إلى الكتابة لا إلى الخلق، فيكون المعنى: أنه عند أول خلق القلم قيل له: «اكتب ما هو كائن...».

-- ولذلك نظائر في الشرع واللغة:

أما في الشرع:

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْمَدِينَةَ ، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا اسْتَبَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ ، وَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ: أَنْ قَالَ:

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامًا، تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ». (9)

فقوله -رضي الله عنه-: "وَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ: أَنْ قَالَ... " أي: أول كلامه بالمدينة، وليس -

بالطَّبَعِ- أول كلامه على الإطلاق.

* ونظير ذلك من اللغة : إذا قال عمرو: "أَوَّلَ مَا رَأَيْتُ زَيْدًا أَطْعَمْتُهُ"، فهل معنى ذلك أنه رآه للمرة الأولى؟! لا، فهو قد رآه كثيراً من قبل، ولكنه في هذه المرة أول ما رآه أطعمه.

*** قال خليل هراس:

" قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»،

⁸ مجموع الفتاوى (213 / 18)، وقد نص على مثله ابن كثير كما في البداية والنهاية (13/1). وانظر توضيح المقاصد وتصحيح

القواعد في شرح النونية (377/1).

⁹ أخرجه أحمد (23835) والترمذي (2485)، وانظر صحيح الجامع (7865).

قَالَ: «وَعَرَّشُهُ عَلَى الْمَاءِ» صرِيحٌ أَنْ التَّقْدِيرَ إِنَّمَا وَقَعَ بَعْدَ خَلْقِ الْعَرْشِ، وَالتَّقْدِيرَ وَقَعَ عِنْدَ أَوَّلِ خَلْقِ الْقَلَمِ، بِلَا مُهْمَلَةٍ؛ لِقَوْلِهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ...» يَعْنِي: أَنَّهُ عِنْدَ أَوَّلِ خَلْقِهِ لِلْقَلَمِ قَالَ لَهُ "اَكْتُبْ" بِدَلِيلِ الرَّوَايَةِ الْآخَرَى: «أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ...» بِنَصْبِ "أَوَّلِ" عَلَى الظَّرْفِيَّةِ، وَنَصْبِ "الْقَلَمِ" عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ؛ وَأَمَّا عَلَى رَوَايَةِ رَفْعِ "أَوَّلِ" وَ"الْقَلَمِ" فَيَتَعَيَّنُ حَمْلُهُ عَلَى أَنَّهُ أَوَّلُ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ -أَي: عَالَمِ الْأَقْلَامِ- لِيَتَّفَقَ الْحَدِيثَانِ؛ إِذْ حَدِيثَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْعَرْشَ سَابِقَ التَّقْدِيرِ، وَالتَّقْدِيرَ مَقَارِنَ لَخَلْقِ الْقَلَمِ، وَفِي اللَّفْظِ الْآخَرَ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-». (10)

قال ابن القيم -رحمه الله- في نونيته:

وَالنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ فِي الْقَلَمِ الَّذِي *** كُتِبَ الْقَضَاءُ بِهِ مِنَ الدِّيَانِ

هَلْ كَانَ قَبْلَ الْعَرْشِ أَوْ هُوَ قَبْلَهُ *** قَوْلَانِ عِنْدَ أَبِي الْعَلَا الْهَمْدَانِي

وَالْحَقُّ أَنَّ الْعَرْشَ قَبْلُ لِأَنَّهُ *** عِنْدَ الْكِتَابَةِ كَانَ ذَا أَرْكَانٍ (11)

*** تنبيه مهم :

إِذَا كَانَ الْخِلَافُ فِي أَوَّلِ الْمَخْلُوقَاتِ وَاقِعًا فِيمَا ذَكَرْنَا أَعْلَاهُ؛ فَمَا هُوَ مُشْتَهَرٌ بَيْنَ الْعَامَّةِ مِنْ أَنَّ الرَّسُولَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هُوَ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ مِمَّا لَا يَصِحُّ فِيهِ دَلِيلٌ، فَلَوْ كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَوَّلَ خَلْقِ اللَّهِ -تَعَالَى- لَكَانَتْ هَذِهِ مَنَقِبَةً وَفَضِيلَةً عَظِيمَةً تَقْتَضِي أَنْ يُظَهَرَ هَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَيُحَدِّثَ بِهَا أَصْحَابَهُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- مِنْ بَابِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} [الضحى: 11]، كَمَا أَخْبَرَ هُمْ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَّهُ خَيْرُ وُلْدِ آدَمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-. (12)

10 الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية "شرح النونية" (168/1).

11 الكافية الشافية "نونية ابن القيم" (ص/65).

12 أما الحديث المشهور على ألسنة الصوفية وفي رسائلهم «أول ما خلق الله هو نُورُ نَبِيِّكَ يَا جَابِرُ...» فَهُوَ حَدِيثٌ مُوَضَّوعٌ، لَا أَصْلَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الْحَدِيثِ، لَمْ يَثْبُتْ لَهُ سِنْدٌ مُتَّصِلٌ فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ، حَتَّى كُتِبَ الْمَوْضُوعَاتُ، وَإِنَّمَا هُوَ مُشْتَهَرٌ عَلَى أَلْسِنَةِ الصُّوفِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ.

قال السيوطي في كتابه الحاوي للفتاوى (223/1): "هو حديث ليس له إسناد يعتمد عليه". 1.هـ.

وقال محمد زياد التكلة في كتابه "مجموع في كشف حقيقة الجزء المفقود من مصنف عبد الرزاق": "وهذا حديث باطل، لا أصل

* فإن قيل : قد صح عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- أنه سئل: « متى كُنبت نبياً ؟

فقال : وآدمُ بينَ الرُّوحِ والجَسَدِ » (13)؟

فقد أجاب عن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، فقال -رحمه الله-: "مراده -صلى الله عليه وسلم-: أن الله كتب نُبوته وأظهرها وذكرَ اسمَه، ولهذا جعلَ ذلك في ذلك الوقت بعدَ خلقِ جسدِ آدمَ وقبلَ نفخِ الرُّوحِ فيه، كما يُكتب رزق المولود وأجله وعمله، وشقيُّ هو أو سعيد بعدَ خلقِ جسده وقبلَ نفخِ الرُّوحِ فيه" (14).

***** من الفوائد المتعلقة بحديث الباب: مسألة القدر :**

فقد ورد في حديث الباب: قوله -صلى الله عليه وسلم-: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ: الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ...»، فدلَّ الحديث على أصل عظيم من أصول الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، الذي هو (إثبات القدر).

***** ومعنى (الإيمان بالقضاء والقدر) في الشرع:**

هو الإيمان بتقدير الله تعالى الأشياء في القَدَم، وعلِمه سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة، وكتابته لذلك، ومشيئته له، ووقوعها على حسب ما

له. لعنَ الله واضعه! وفيه ما هو مصادم لعدة نصوص صريحة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة في الخلق وغيره، وليس في شيء من كتب الإسلام مُسنداً". =

= كذلك يقال: ما ذُكر في الحديث السابق أن النبي -صلى الله عليه وسلم- مخلوق من نور، فهذا كلام باطل؛ فقد صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ فِي ذَلِكَ» إشارة أن الملائكة فحسب هم الذين خُلِقوا من نور، دون آدم وبنيه.

* وكذلك هو خبر باطل؛ لمعارضته لبشرية النبي -صلى الله عليه وسلم-، إذ من المقطوع به أنه -صلى الله عليه وسلم- من بني آدم، وآدم خُلِقَ من طين لا من نور.

وانظر خصائص المصطفى بين الغلو والجفا (ص/83-89)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (458).

وكان مبتدأ أمر هذا القول: عند متقدمي الإسماعيلية الباطنية، ففي كتبهم القديمة الكثير من الأحاديث المكذوبة في أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وعلياً -رضي الله عنه- قد خُلِقا من نور الله.

انظر أصول الإسماعيلية للدكتور سليمان بن عبد الله السلومي (2/459).

* أما كونه نوراً بما جاء به من الهدى فهذا مما لا شك فيه، قال تعالى: { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ } [المائدة:15]، وقال تعالى: { وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا } [الأحزاب:46].

¹³ أخرجه أحمد (20596) وصححه الألباني في صحيح الجامع (4581).

¹⁴ الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح (ص/382).

قَدَرَهَا، وَخَلَقَهُ لَهُ: (15)

وهذا مما دل عليه: القرآن، والسنة، وإجماع الأمة.

قال الله -عز وجل-: { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ }، وهذه الآية سبب في نزولها: فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: "جاء مشركو قريش يُخاصمون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في القدر، فنزلت: { يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } [القمر: 48-49]. (16)

وقال تعالى: { قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا } [التوبة: 51]، وقال -عز وجل-: { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } [الحديد: 22].

**** وأما السنة :**

فقد عقد أئمة الحديث -كالبخاري ومسلم- رحمهما الله- في صحيحيهما- كتاباً للقدر، اشتمل على عدة أحاديث في إثبات القدر، نذكر منها ما يلي:

- 1) عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: «احتج آدم وموسى، فقال له موسى: يا آدم أنت أبونا، حييننا وأخرجتنا من الجنة، قال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده، أتلومني على أمرٍ قدر الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فحج آدم موسى -ثلاثاً-» (17)
- 2) عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الرزق، أدرك ذلك لا محالة، فزنى العين: النظر، وزنى اللسان: المنطق، والتفلسن: متى وتشتهي، والفرج: يصدق ذلك ويكذبه» (18)
- 3) عن حذيفة -رضي الله عنه- قال: "لقد خطبنا النبي -صلى الله عليه وسلم- حطبة ما ترك فيها شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره، علمه من علمه، وجهله من جهله". (19)

15 القضاء والقدر (ص/ 39) - د. عبد الرحمن المحمود.

16 أخرجه مسلم (2656)، وانظر أسباب نزول القرآن للنيسابوري (ص/ 419).

17 متفق عليه.

18 متفق عليه.

19 متفق عليه.

(4) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ :
« لَا يَأْتِ ابْنَ آدَمَ النَّدْرُ بِشَيْءٍ لَمْ يَكُنْ قَدْ قَدَّرْتُهُ، وَلَكِنْ يُلْقِيهِ الْقَدَرُ وَقَدْ قَدَّرْتُهُ لَهُ، أَسْتَحْرِجُ بِهِ مِنَ
الْبَخِيلِ » (20).

(5) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَئْسِ، أَوْ
الْكَئْسِ وَالْعَجْزِ ». 21.

*** مراتب الإيمان بالقدر :

1 - المرتبة الأولى : العلم :

وهو علم الله الأزلي في كل ما هو كائن، فإن كل كائن قد سبق به علم الله أزلاً، ولا يتجدد له علم بشيء لم يكن عالماً به أزلاً، قال تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه:110].

وذلك يقتضي الإيمان بعلم الله - عز وجل - المحيط بكل شيء من الموجودات والمعدومات، والممكنات والمستحيلات، فعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وأنه علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم، وعلم أرزاقهم وأجالهم وأحوالهم وأعمالهم في جميع حركاتهم وسكناتهم، وشقاوتهم وسعادتهم، ومن هو منهم من أهل الجنة ومن هو منهم من أهل النار، من قبل أن يخلقهم، ومن قبل أن يخلق الجنة والنار، علم دق ذلك وجليله، وكثيره وقليله، وظاهره وباطنه، وسرّه وعلايته، ومبدأه ومُنْتَهَاهُ، كل ذلك بعلمه الذي هو صِفَتُهُ ومقتضى اسمه العليم الخبير عالم الغيب والشهادة علام الغيوب، كما قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ...} [الحشر:22]. (22)

وقد اتفق على الإيمان بالعلم السابق الرسل عليهم الصلاة والسلام من أولهم إلى خاتمهم، وانفق عليه جميع الصحابة ومن تبعهم من الأمة، ولم يخالف إلا مجوس الأمة، غلاة القدرية. (23)

** أقسام علم الله :

(الله - عز وجل - يعلم ما كان، وما هو كائن، ويعلم ما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف سيكون)

²⁰ متفق عليه.

²¹ أخرجه مسلم (2655)

²² معارج القبول (920/3).

²³ شفاء العليل (ص/29).

والله تعالى يعلم ما كان من الأمور التي مَضَتْ منذُ بَدْءِ الخَلْقِ والآجال، ويعلم ما هو كائن، قال الله: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام:59]، ويعلم ما سيكون، قال تعالى:

{إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان:34]

والله -تعالى- يعلم ما لم يكن لو كان كيف سيكون، بمعنى: أن الله -تعالى- يعلم الأمور التي ما قدرها، لو وقعت فكيف سيكون حال وقوعها.

* قال ابن كثير:

"أخبر الله -تعالى- بأنه يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ ولهذا قال تعالى: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ} فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا، كما قال تعالى:

{وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الأنعام:28]، وقال تعالى: {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال:23]، وقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ} [النساء:66-68] والآيات في هذا كثيرة". (24)

**** ومن السنة **:**

عن أبي هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سئل عن أولاد المشركين، فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» (25).

* قال النووي:

"وفي قوله -صلى الله عليه وسلم-: «الله أعلم بما كانوا عاملين» بيان لمذهب أهل الحق أن الله علم ما كان، وما يكون، وما لا يكون لو كان كيف كان يكون، وقد سبق بيان نظائره من القرآن والحديث". (26)

***** إشكال، والجواب :**

قول الله تعالى: {وَلَنَبَلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبَلُّوْا أَخْبَارَكُمْ} [محمد:31]، وقوله تعالى: {لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ} [المائدة:94]، وقوله تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ} [آل

²⁴ تفسير القرآن العظيم (4/160).

²⁵ متفق عليه.

²⁶ المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (16/211).

عمران:142]، وأمثال هذه الآيات مُشْكِلَةٌ؛ لأنَّ ظاهرها تجدُّد علم الله -عزَّ وجل- بعد وقوع الفعل؟

وجواب ذلك من وجهين :

الأول هو جواب إجمالي، فنقول:

إنَّ غُلاةَ القدرية قد تعلقوا بمثل هذه الآيات في زعمهم أنَّ علم الله -تعالى- بأفعال العباد مستأنف، وأنَّ الله لا يعلم الشيء إلا بعد وقوعه؛ فهو لاء كَفَرَةٌ بلا شكٍّ لإنكارهم ما دلَّ الكتابُ والسنة عليه دلالةً قطعيةً، وأجمعَ المسلمون على أزلية علم الله. فمثل هذه الآيات إنما هي من المتشابه الذي يُرَدُّ إلى المُحَكَّم من الأدلة التي دلت أنَّ علم الله -تعالى- واسع وشامل لكل شيء، كقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، فهذا عموم لا يقبل أي تخصيص.

*** ثانياً، وهو جواب تفصيلي :**

قال ابن عثيمين : "إن المراد بالعلم في هذه الآيات يراد بها شيان:

(أ) الأول :

علم رؤيةٍ وظهورٍ ومُشاهدةٍ، أي: لِنَرَى ، ومعلومٌ أنَّ علم ما سيكون ليس كعلم ما كان؛ لأنَّ علم الله -تعالى- بالشيء قبل وقوعه: علمٌ بأنه سيقع، ولكن بعد وقوعه: علمٌ بأنه وَقَعَ.

(ب) الثاني :

أنَّ المراد بالعلم إنما هو: الذي يترتب عليه الجزاء، أي: لِنَعْلَمَ علماً يترتب عليه الجزاء، وذلك كقوله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ...} [محمد:31]. قَبْلَ أن يبتلينا قد علمَ مَنْ هو المطيع وَمَنْ هو العاصي؛ ولكن هذا لا يترتب عليه لا الجزاء ولا الثواب". (27)

*** قال القرطبي :**

"قوله: {حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ}. وهذا العلم هو العلم الذي يقع به الجزاء؛ لأنه إنما يُجازيهم بأعمالهم، لا بعلمه القديم عليهم، فتأويله: "حَتَّى نَعْلَمَ المجاهدينَ علماً

²⁷ تفسير الكهف (ص/24)

قلت :

بيان ذلك في قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُحْزَى} [طه:134]، فلو أن الله -تعالى- عاقب أهل الكفر والعصيان بناءً على علمه الأزلي السابق فيهم لقالوا: لو جاءتنا الرسل لَكُنَّا مؤمنين؛ وهذه دعوى كاذبة، فهم كما قال الله -تعالى- فيهم: {وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا...} [الأنعام:25].

شهادة"، لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا؛ فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة، "ونبلو أخباركم": نختبرها ونظهرها" .ا.هـ(28)

*قال الشنقيطي :

"قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ...}[البقرة:143]، ظاهرُ هذه الآية قد يتوهمُ منه الجاهلُ أنه -تعالى- يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه، -سبحانه وتعالى- عن ذلك علواً كبيراً، بل هو -تعالى- عالمٌ بكل ما سيكون قبل أن يكون، وقد بين أنه لا يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه بقوله -جل وعلا-: {...وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}[آل عمران:154]؛ فقوله: {والله عليم بذات الصدور} بعد قوله: {الليبتلي} دليلٌ قاطع على أنه لم يستفد بالاختبار شيئاً لم يكن عالماً به، سبحانه، وتعالى عن ذلك علواً كبيراً؛ لأن العليم بذات الصدور غنيٌّ عن الاختبار".(29)

*** المرتبة الثانية : الكتابة :

وهو الإيمان بأن الله -تعالى- كتب كل شيء في اللوح المحفوظ، فكل ما يكون من الذوات، والصفات، والأقوال، والأفعال، والحركات، والسكنات، والرطب، واليابس مكتوب، قال الله -تعالى-: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[الأنعام:59]، وقال سبحانه: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}[الحديد:22]، وقال سبحانه: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ}[الحج:70]، وهو اللوح المحفوظ. وهذه الآية فيها: إثبات العلم، وإثبات الكتابة.

وقال سبحانه: {وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ}[يس:12]، وهو اللوح المحفوظ.

وَقَدْ قَالَ -تعالى-: {فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}[الأعراف:34](30)، وقال سبحانه: {يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ}[الرعد:39].

²⁸ الجامع لأحكام القرآن (254/16).

²⁹ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (46/1).

³⁰ أي: إن الإنسان لا يأخذ في هذه الدنيا إلا ما كتب له من الرزق والأجل، فإذا جاء أجله لا يتقدم ولا يتأخر، فلكل إنسان أجلٌ محدد، حتى الذي قُتل ظلماً وعدواناً قد انتهى أجله، خلافاً للمعتزلة الذين يقولون: إن المقتول لو لم يُقتل لعاش. فنحن نقول: بل المقتول قد انتهى أجله، لكن الأسباب مختلفة، فهذا أجله ينتهي على فراشه، وذاك أجله ينتهي بالمرض، وهذا أجله ينتهي بأن يُقتل.=

*** والسنة :

- (1) **حديث الباب، وفيه قال الرسول -صلى الله عليه وسلم-:** «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ: الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ: أَكْتُبُ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».
- (2) **وعن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما - قال:**
سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ:
" كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ:
وَعَرَّشَهُ عَلَى الْمَاءِ " (31).

* قال النووي:

"قال العلماء: المراد: تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ أو غيره، لا أصل التقدير؛ فإن ذلك أزلي لا أول له". (32)

قال ابن القيم:
"وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب". (33)

** وهنا سؤال : هل هذه المرتبة من مراتب القدر -التي هي الكتابة- تقبل التغيير؟ الجواب:

= وقد سئل شيخ الإسلام عن المقتول: هل مات بأجله، أم قطع القاتل أجله؟ فقال -رحمه الله-: "المقتول كغيره من الموتى، لا يموت أحد قبل أجله، ولا يتأخر أحد عن أجله.

والله يعلم ما كان قبل أن يكون، وقد كتب ذلك، فهو يعلم أن هذا يموت بالبطن أو ذات الجنب أو العرق أو غير ذلك من الأسباب، وهذا يموت مقتولاً.

ولو لم يقتل المقتول: قال بعض القدرية: إنه كان يعيش. وقال بعض نفاة الأسباب: إنه يموت.

وكل منهما خطأ؛ فإن الله علم أنه يموت بالقتل، فإذا قدر خلاف معلومه كان تقديراً لما لا يكون لو كان كيف كان يكون، وهذا

قد يعلمه بعض الناس، وقد لا يعلمه، فلو فرضنا أن الله علم أنه لا يقتل أمكن أن يكون قدر موته في هذا الوقت، وأمكن أن

يكون قدر حياته إلى وقت آخر؛ فالجزم بأحد هذين -على التقدير الذي لا يكون- جهل. مجموع الفتاوى (518/8).

قلت: وعليه، فمن الأخطاء الشائعة على ألسنة بعض الناس: قولهم: "لو صبر القاتل على المقتول لَمَاتَ وحدَه".

³¹ أخرجه مسلم (2653) والترمذي (2156).

³² المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (203/16) وتحفة الأحوذى (444 /5) وفيض القدير شرح الجامع الصغير

(510/4).

³³ شفاء العليل (ص/41).

أما المكتوب في أم الكتاب -وهو اللوح المحفوظ- فهذا لا تتغير الكتابة الموجودة فيه، وأما الكتابة التي هي في أيدي الملائكة من الصُّحُفِ فإنَّ الله -تعالى- يمحو منها ما يشاء ويثبت، وهذا معنى قوله -تعالى-: {يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد:39]، والمراد بأم الكتاب: اللوح المحفوظ، فاللوح المحفوظ لا يتغير شيء مما كُتِبَ فيه، وأما ما في الصحف التي مع الملائكة فهذه التي يقع فيها المَحْوُ والتغيير. والملائكة يكتبون ما يؤمرون به من آجالٍ وأرزاقٍ، كما ورد في قوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

«إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْفُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ فِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضَعَّةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ

يُرْسَلُ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- إِلَيْهِ الْمَلَكُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: عَمَلُهُ، وَأَجَلُهُ، وَرِزْقُهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ» (34)؛ فالمحو

والإثبات بالنسبة لما في علم المَلَكِ؛ وما في أم الكتاب هو الذي في علم الله -تعالى- فلا مَحْوَ فيه البتَّةُ، ويقال له: الْقَضَاءُ الْمُبْرَمُ، ويقال للأوَّل: الْقَضَاءُ الْمُعْلَقُ. (35)

***** وعليه فالقضاء نوعان:**

(1) قضاء مُبْرَمٌ:

وهو القدر الأزلي، وهو لا يتغير، كما قال -تعالى-: {مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ} [ق:29]، وقال الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لأُمِّ حَبِيبَةَ -رضي الله عنها-: «قَدْ سَأَلَتِ اللهُ لِأَجَالِ مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَفْسُومَةٍ، لَنْ يُعَجَّلَ شَيْئًا قَبْلَ حِلِّهِ، أَوْ يُؤَخَّرَ شَيْئًا عَنِ حِلِّهِ» (36).

قال النووي:

"إن الآجال والأرزاق مقدرة لا تتغير عما قدره الله وعلمه في الأزل، فيستحيل زيادتها ونقصها -حقيقة- عن ذلك". (37)

(2) قضاء معلق:

وهو الذي في الصُّحُفِ التي في أيدي الملائكة، فإنه يقال: اكْتُبُوا عُمْرَ فُلَانٍ إِنْ لَمْ يَتَصَدَّقْ؛ كذا، وَإِنْ تَصَدَّقَ فَهُوَ كَذَا، وفي علم الله وقدره الأزلي أنه سيتصدق أو لا يتصدق. فهذا النوع من القدر يَنْفَعُ فيه الدعاء والصدقة؛ لأنه معلق عليهما، وهو المراد بقوله -تعالى-: {... لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد:38-39]؛ وهو معنى قوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

³⁴ متفق عليه.

³⁵ فتح الباري (10/416).

³⁶ أخرجه مسلم (2663).

³⁷ المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (16/213).

« لَا يَزِدُّ الْقَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ » (38)

**** قلت :**

وعلى ذلك يُحْمَلُ ما وردَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- مرفوعاً، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبَيْصاً مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ، مَنْ هُوَ لَاءِ؟ قَالَ: هُوَ لَاءِ ذُرِّيَّتِكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبَيْصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ، مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، يُقَالُ لَهُ: دَاوُدُ، فَقَالَ: رَبِّ كَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا فُضِيَ عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَقَالَ: أَوْلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟...» (39)، وكذلك قوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

³⁸ شفاء الضرر بفهم القضاء والقدر (3/1).

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية سؤالاً طويلاً، وفيه: هل شرع في الدعاء أن يقول: اللهم إن كنت كتبتني كذا فامحني واكتبني كذا، فإنك قلت: {بِمَحْوِ اللَّهِ مَآ يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ}؟ وهل صح أن عمر كان يدعو بمثل هذا؟ فكان مما أجاب به -رحمه الله-: "والجواب المحقق: أن الله يكتب للعبد أجلاً في صحف الملائكة، فإذا وصل رحمه زاد في ذلك المكتوب، وإن عمل ما يوجب النقص نقص من ذلك المكتوب... وهذا معنى ما روي عن عمر أنه قال: "اللهم إن كنت كتبتني شقياً فامحني واكتبني سعيداً، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت". والله سبحانه عالم بما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فهو يعلم ما كتبه له، وما يزيد به إياه بعد ذلك، والملائكة لا علم لهم إلا ما علمهم الله، والله يعلم الأشياء قبل كونها وبعد كونها، فلهذا قال العلماء: إن المحو والإثبات في صحف الملائكة، وأما علم الله سبحانه فلا يختلف، ولا يبدو له ما لم يكن علماً به، فلا محو فيه ولا إثبات، وأما اللوح المحفوظ فهل فيه محو وإثبات؟ على قولين، والله -سبحانه وتعالى- أعلم". اهـ. مجموع الفتاوى (491/14).

وقال ابن القيم:

"المقدور قدر بأسباب، ومن أسبابه: الدعاء، فلم يقدر مجرداً عن سببه، ولكن قدر بسببه، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور، وهكذا، كما قدر الشبع والرِّيُّ بالأكل والشرب، وقدر الولد بالوطء، وقدر حصول الزرع بالبذر... وحينئذ فالدعاء من أقوى الأسباب، فإذا قدر وقوع المدعو به لم يصحَّ أن يقال: لا فائدة في الدعاء، كما لا يقال: لا فائدة في الأكل والشرب". اهـ. الجواب الكافي (ص/17).

* وقال الغزالي: "فإن قيل: ما فائدة الدعاء مع أن القضاء لا مرَدُّ له؟ فاعلم أنَّ من جملة القضاء: رد البلاء بالدعاء، فإن الدعاء سبب رد البلاء ووجود الرحمة، كما أن البذر سبب لخروج النبات من الأرض، وكما أن الترس يدفع السهم؛ كذلك الدعاء يرد البلاء". اهـ. وانظر كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه للسندي (47/1).

³⁹ أخرجه أحمد (2270) (الترمذي (3368)، قال: "هذا حديث حسن صحيح"، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

«مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحْمَهُ» من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه» (40).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

" ما كتبه الله وأعلم به الملائكة فهذا يزيد وينقص بحسب الأسباب، فإن الله يأمر الملائكة أن تكتب للعبد رزقاً، وإن وصل رحمه زاده الله على ذلك، كما ثبت في الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَبْسُطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحْمَهُ»، وكذلك عمرُ داودَ زادَ سنينَ سنةً، فجعله الله مئةً بعدَ أن كان أربعين -رواه الترمذي وغيره-، ومن هذا الباب: قول عمر: "اللهم إن كتبتني شقياً فامحني واكتبني سعيداً، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت" (41).

⁴⁰ أخرجه مسلم (2557).

قال الإمام النووي -رحمه الله- في شرح مسلم (330، 331/16): "قوله -صلى الله عليه وسلم-: «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»:

"ينسأ": مهموز، أي: يؤخر، و"الأثر": الأجل؛ لأنه تابع للحياة في أثرها، وبسط الرزق: توسيعه وكثرته، وقيل: البركة فيه؛ وأما التأخير في الأجل ففيه سؤال مشهور، وهو أن الآجال والأرزاق مقدرة لا تزيد ولا تنقص، {فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [الأعراف:34]، وأجاب العلماء بأجوبة، الصحيح منها:

الأول:

أن هذه الزيادة: بالبركة في عمره، والتوفيق للطاعات، وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة، وصيانتها من الضياع في غير ذلك.

الثاني:

أنه بالنسبة إلى ما يظهر للملائكة وفي اللوح المحفوظ ونحو ذلك، فيظهر لهم في اللوح "أن عمره ستون سنة، إلا إن يصل رحمه، فإن وصلها زيد له أربعون"، وقد علم -سبحانه وتعالى- ما سيقع له من ذلك، وهو في معنى قوله تعالى: {يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ} [الرعد:39]، فيه النسبة إلى علم الله تعالى وما سبق به قدره، ولا زيادة، بل هي مستحيلة، وبالنسبة إلى ما ظهر للمخلوقين تُتصور الزيادة، وهو مراد الحديث، والله أعلم.

⁴¹ مجموع الفتاوى (540/8)، وانظر تأويل مختلف الحديث (ص/238)، مشكل الآثار (81/8، 82).

قلت:

وأثر عمر - رضي الله عنه - مشهور، قد رواه ابن بطّة في الإبانة (1565) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (1207). وقول عمر هذا يتنزل على ما في علم الملائكة، لا على ما في أم الكتاب، فإنه قال - رضي الله عنه - بعد تلك الدعوة: "فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب". وممن دعا بمثل هذه الدعوة: ابن مسعود كما في مصنف ابن أبي شيبة (68/6)، وابن الزبير كما في أخبار مكة (462/1).

3- المرتبة الثالثة: المشيئة :

المرتبة الثالثة من مراتب الإيمان بالقدر هي المشيئة، المشيئة النافذة، أي: الماضية التي لا راد لها. مِنْ: نَفَذَ السَّهْمُ نَفْذًا إِذَا حَرَقَ الرَّمِيَّةَ، فهي نافذة .
فهذه المرتبة هي إثبات نفوذ قدرته ومشيئته وشمول قدرته، وهي الإيمان بأن ما شاء الله: كان، وما لم يشأ: لم يكن، فما في السماوات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله، ولا يكون في ملكه ما لا يريدُ البتة.

**** وهذه المرتبة ثابتة بالكتاب، والسنة، وأجمع عليها سلف الأمة:**

قال -تعالى-: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [الكهف:23]، وقال الله -تعالى-: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّاكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُفَعِّلُ مَا يُرِيدُ} [البقرة:253]، وقال الله -عزَّ وجلَّ-: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس:82]، وقال: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير:29].

ومذهب أهل السنة والجماعة:

أن الله -عز وجل- مُرِيدٌ لجميع أعمال العباد خَيْرَهَا وَشَرَّهَا، ولم يؤمن أحدٌ إلا بمشيئته، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً...} [هود:118]، ولو شاء ألا يُعصى لما خَلَقَ إبليس؛ فَكُفِرَ الكافرينَ، وإيمان المؤمنين بقضائه -سبحانه وتعالى- وقدره وإرادته ومشيئته، أراد كل ذلك، وشاءه، وَقَضَاهُ. (42)

وأهل السنة والجماعة وسَطُ في هذه المرتبة بين الجبرية الغلاة في إثبات مشيئة الرب، والقدرية النفاة لمشيئته عز وجل .

فإنَّ أهل السنة والجماعة أثبتوا للرَّبِّ مشيئةً عامَّةً، وأثبتوا للعبد مشيئةً، وجعلوا مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله -تعالى-، كما قال الله -عزَّ وجلَّ-: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير:28-29]، فلا يقع في ملك الله ما لم يشأه الله -تعالى-.

وبهذا يُجاب عن السؤال الذي يتكرَّر طرْحُه، وهو: هل العبدُ مُسَيَّرٌ أو مُخَيَّرٌ؟

فلا يُقال: إنَّه مُسَيَّرٌ بإطلاقٍ، ولا مُخَيَّرٌ بإطلاقٍ، بل يُقال:

إنَّه مُخَيَّرٌ باعتبار أنَّ له مشيئةً وإرادةً، وأعماله كسبٌ له، يُثاب على حسنِّها ويُعاقب على سيئِّها، وهو مُسَيَّرٌ باعتبار أنَّه لا يحصلُ منه شيءٌ خارجٌ عن مشيئة الله وإرادته وخلقِه وإيجاده. وبيان ذلك في قول الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

⁴² عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص/285).

«اعْمَلُوا فَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»، ثُمَّ قَرَأَ: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} {الليل:6} الآية. (43)

وكلُّ ما يحصلُ من هداية وضلال: هو بمشيئة الله وإرادته، قال -تعالى-: {مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الأنعام:39]، وقد بيَّن الله للعباد طريقَ السعادة وطريق الضلالة، وأعطاهم عقولاً يُمَيِّزُونَ بها بين النافع والضارِّ، فَمَنْ اختار طريقَ السعادة فسلكه انتهى به إلى السعادة، وقد حصل ذلك بمشيئة العبد وإرادته، التابعة لمشيئة الله وإرادته، وذلك فضلٌ من الله وإحسانٌ، وَمَنْ اختار طريقَ الضلالة وسلكه انتهى به إلى الشقاوة، وقد حصل ذلك بمشيئة العبد وإرادته، التابعة لمشيئة الله وإرادته، وذلك عدلٌ من الله سبحانه، قال الله -عزَّ وجلَّ-: {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد:8-10]، أي: طريقَي الخير والشرِّ، وقال: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان:3]، وقال: {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّمْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا} [الكهف:17].

4- المَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ : الخَلْقُ :

قال -تعالى-: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر:49]، وقال -تعالى-: {...أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصفات:95-96] (44)، وقال -تعالى-: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}

43 متفق عليه.

44 اختلف العلماء في قوله تعالى: {وما تعملون}، هل (ما) هنا مصدرية، فيكون المعنى: خلقكم وخلق أعمالكم، أم هي موصولة، ويكون المعنى: خلقكم وخلق الذي تعملون من أصنام وغيرها؟

* قيل: إنها مصدرية. قال البخاري: "باب أفعال العباد. فأما أفعال العباد فقد حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا مروان بن معاوية، حدثنا أبو مالك عن ربيعي بن حراش، عن حذيفة -رضي الله عنه-، قال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ اللَّهَ يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنَعْتَهُ»، وتلا بعضهم عند ذلك: {والله خلقكم وما تعملون} [الصفات:96]، فأخبر أن الصناعات وأهلها مخلوقة. [خلق أفعال العباد/46].

-و قد رجَّح الزمخشري في تفسيره الكشاف أنها موصولة، ولكنه يريد بذلك نصرته مذهب الاعتزالي الذي يتبنى مسألة أن أفعال العباد من خلقهم هم.

**وأما من ذهب من أهل السنة إلى ترجيح أنها مصدرية فإنما كان لإثبات أن أفعال العباد من خلق الله؛ وذلك لإبطال مذاهب القدرية.

والراجح: أنها موصولة؛ لأن السياق يقتضي ذلك، فإن إبراهيم -عليه السلام- إنما يقرر فساد عملهم في أنهم يعبدون ما هو مخلوق مثلهم. وتأمل في أول الآيات يخبرك عن آخرها، فإنه أولاً {قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ} [الصفات:95]، فالخطاب متوجهٌ لما يعبدون مما صنعه أيديهم؛ فيكون المعنى: أتعبدون ما تنحت أيديكم، والله خلقكم وإياها؟! =

[الرعد:16]، وقال -عز وجل-: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[الأنبياء:33]، وقال -صلى الله عليه وسلم-: «إن الله خالق كل صانع وصنعه»(45)

وعن زيد بن أرقم -رضي الله عنه- أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقول: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكَّها أنت خيرٌ من زكَّها، أنت وليها ومولاها...»(46)، والشاهد من هذا الحديث هو قوله: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكَّها...»؛ فالفاعل هو الله - تعالى-، فهو الذي يُطلب منه ذلك.

قال أبو العباس ابن تيمية:

"ومما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها مع إيمانهم بالقضاء والقدر، وأن الله خالق كلِّ شيء، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يُضل من يشاء، ويهدي من يشاء..."(47).

***** وهنا إشكال في قوله -تعالى-: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[المؤمنون:14]، فهل من خالقٍ مع الله؟**

والجواب: أن كلمة "الخلق" تُطلق على عدة معانٍ:

الأول: أن الخلق هنا بمعنى الصُّنْع، فالمعنى: تبارك الله أعظمُ الصانعين إتقاناً.

وهذا جارٍ على لغة العرب، ومنه: قول الشاعر:

=قال ابن القيم:

"أما استشهاد بعضهم بقوله تعالى: {والله خلقكم وما تعملون} بحمل "ما" على المصدر، أي: "خلقكم وأعمالكم" فالظاهر خلاف هذا، وأنها موصولة، أي: خلقكم وخلق الأصنام التي تعملونها؛ فهو يدل على خلق أعمالهم من جهة اللزوم، فإن "الصنم" اسم للآلهة التي حل فيها العمل المخصوص، فإذا كان مخلوقاً لله كان خلقه متناولاً لمادته وصورته". ا.هـ.

* ثم قال -رحمه الله-: "إن كانت "ما" مصدرية - كما قدره بعضهم - فلا استدلال ظاهر، وليس بقوي؛ إذ لا تناسب بين إنكاره عليهم عبادة ما ينحتونه بأيديهم وبين إخبارهم بأن الله خالق أعمالهم من عبادة تلك الآلهة ونحتها وغير ذلك؛ فالأولى: أن تكون "ما" موصولة، أي: والله خلقكم وخلق آلهتكم التي عملتموها بأيديكم، فهي مخلوقة له، ليس فيها أنه يبرر شركهم بالله، ويقول: إن عملكم مخلوق لله، فأنتم بريئون من اللوم عليه! كلاً! لأننا لو قلنا ذلك لكان يحتج لهم ولا يحتج عليهم، ولكن هو يحتج عليهم، وليس يحتج لهم". ا.هـ. وانظر شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر (ص/110).

⁴⁵ أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (25) وابن أبي عاصم في السنة (257 ، 358) ، وصححه الألباني في الصحيحة (1637) .

⁴⁶ رواه مسلم (2722).

⁴⁷ مجموع الفتاوى (8/459).

ولأنت تُفري ما خلقتَ وبِعَضُ القومِ يَخْلُقُ ثُمَّ لا يَفري

الثاني : أن الخلق بمعنى التقدير، فإنه سبحانه هو أحسن المقدرين- عز وجل-

الثالث : أن المعنى: أن الله -تعالى- هو أحسن الخالقين في اعتقادكم وظنكم.

الرابع، وهو أحسنها : أن الخلق يطلق على فعل الرب، ويُطلق كذلك على فعل العبد، فنُتبت للمخلوق خَلْقاً، لكنه ليس كخلق الله -تعالى-؛ فخلق الله -تعالى- إنما هو إيجاد للأشياء من العدم كما قال -تعالى-: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ}[النحل:17]، وقوله -عزَّ وجلَّ- في الحديث القدسي: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُفُوا ذَرَّةً أَوْ لِيَخْلُفُوا حَبَّةً أَوْ شَعِيرَةً»(48).

****** وأما خلق العبد للأشياء فإنما هو تحويل الشيء من صورة إلى صورة، فهو تصرف في شيء خلقه الله -تعالى-. ونظير ذلك: في قول إبراهيم -عليه السلام- لقومه: {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَتَخْلُقُونَ إِفكاً...}[العنكبوت:17]، فسمي نحتهم للأصنام "خَلْقاً"، كذلك ما قد وردَ من فعل عيسى عليه السلام: {أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ...}[آل عمران:49].

***ومن ذلك ما جاء في الصحيحين**

أنه يقال للمصوِّرين يوم القيامة: «أحيوا ما خلقتم»، ومعلوم أن المصوِّر لم يوجد شيئاً من العدم، إنما حوَّل الطينَ أو الحَجَرَ إلى صورة إنسان أو طير؛ وكلُّ هذا من خلق الله -تعالى- قال القرطبي:

"يقال لمن صنع شيئاً: خَلَقَهُ، ولا تُنفى اللفظة عن البشر في معنى الصُّنْع؛ وإنما هي منفية بمعنى الاختراع والإيجاد من العدم".(49)

*** المُنازِعونَ في مراتبِ القدر :**

فرقة القدرية هي أولُ من نازعَ في هذه القضية العقديَّة، حيث قامت أصولهم على نفي خلق الله لأفعال العباد من خير وشر وطاعة ومعصية، وأن الله -تعالى- لم يقدرها ولم يشأها ولم يخلقها، ويزعمون أن الله -تعالى- أمرَ ونهى وهو لا يعلم من يطيعه ولا من يعصيه، وأن

⁴⁸ أخرجه البخاري (7559).

⁴⁹ الجامع لأحكام القرآن (12 / 110).

الأمر أنْف، أي: مستأنف، أي: لم يسبق به قدرٌ ولا علمٌ من الله -تعالى-، وإنما يعلمه بعد وقوعه.

** والقدرية قسمان : غلاة، ومتوسّطون :

أ (الغلاة المتقدّمون :

أنكروا المرتبتين الأوليين (علم الله، وكتابته). وهذا القول هو أول ما حدث في الإسلام بعد انقراض عصر الخلفاء الراشدين، وكان أول من أظهر ذلك بالبصرة: معبد الجهني، وأخذ عنه هذا المذهب غيلان الدمشقي؛ فردّ عليه بقية الصحابة، كعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس، ووائلة بن الأسقع، وغيرهم -رضي الله عنهم-. وهم الذين كَفَرَهُم الأئمة، مالك والشافعي وأحمد، وقال فيهم الإمام الشافعي: "ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقرّوا به خُصِمُوا، وإن أنكروه كفروا"، وقال مثله عمرُ بن عبد العزيز. (50)

وقد انعقدَ الإجماع على تكفير مَنْ جَحَدَ أن الله - تعالى - عالمٌ، أو غيرَ ذلك من صفاته الذاتية. (51)

ب) المتأخرون :

آمنوا بمرتبتَي العلم والكتابة، ولكن جحدوا عموم المرتبتين الأخرين، فأنكروا علم الله المتقدّم، وكتابته السابقة، وأقرّوا بعموم المشيئة والخلق؛ فخالفوا السلف في زعمهم أن أفعال العباد مَفْدُورَةٌ لهم وواقعةٌ منهم على جهة الاستقلال، وقالوا بعموم مشيئة الله وخلقها، إلا أفعال العباد؛ فقالوا:

إن الله على ما يشاء قدير، ولَمَّا كانت أفعال العباد ليست ممّا شاءه الله كانت لَيْسَتْ داخلَةً تحت قدرته. وهذا المذهب -مع كونه مذهباً باطلاً أيضاً- هو أخفُّ من المذهب الأول.

⁵⁰ يقال للقدري: أتؤمن أنّ الله يعلم ما كانَ وما سيكون إلى قيام الساعة، ويعلم من سيّطعه ومن سيّصيه؟ فإذا أقرّ بهذا خُصِمَ، حينئذ يقال له: مَنْ علمَ ذلك أليس هو الذي خلقه؟! أليس هو الذي أوجده؟! أليس مبنياً على العلم، والعلم مقتضاه الحكمة والعدل والرحمة؟! وإذا أنكروا علم الله كفروا؛ لأنهم أنكروا ما هو معلوم من كتاب الله وعند جميع المسلمين بالضرورة.

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سمعت أبي -رحمه الله- وسأله عليّ بن الجهم عن: مَنْ قال بالقدر يكون كافراً؟ قال: "إذا جحد العلم، إذا قال: "إن الله -عز وجل- لم يكن عالماً حتى خلق عالماً فعلم"، فجحد علم الله -عز وجل-، فهو كافر". وانظر السنة لعبد الله بن أحمد (رقم: 835)، والرد على الجهمية للدارمي (ص/108).

⁵¹ أنوار البروق (180/4). ومن ضلال المعتزلة في نفي القدر: ما ورد عن عمرو بن عبيد في قوله: "إذا كان {تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ وَتَبَّتْ} في اللوح المحفوظ، فما لله على ابن حجة، وما على الوليد من لوم!"، يعني: في قوله: {ذرني ومن خلقت وحيداً} [المدر: 11]. انظر تاريخ بغداد (171/12)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (1369).

وهؤلاء هم من قال فيهم شيخ الإسلام ابن تيمية :
هؤلاء فهم مبتدعون ضالون، لكنهم ليسوا بمنزلة أولئك؛ وفي هؤلاء خلق كثير من العلماء
والعباد كُتِبَ عنهم العلم، وأخرج البخاري ومسلم لجماعة منهم؛ لكن من كان داعية إليه
لم يُخرجوا له". (52)

* الرد على القدرية :

اعلم أولاً أن أصل الخلط والسقط عند القدرية إنما هو في: عدم تفريقهم بين الإرادة الكونية
والإرادة الشرعية؛ فلا شك أن الله -تعالى- يُبغض الكُفْرَ والفُسُوقَ والعِصْيَانَ، ولكنه قدّر
وجود هذه الأشياء لحكمٍ بليغة، وذلك وفق إرادته الكونية، لا الشرعية؛ ولو أنهم فهموا
الفرق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية لَنَجَوْا من تلك الفتنة!

فالإرادة الكونية :

هي مُرَادِفَةٌ للمشيئة، وهذه الإرادة تَسْتَلْزِمُ وقوع المُرَادِ، ولا يلزم أن يكون مرادها محبوباً
لله مُرَضِياً له، بل قد يكون مكروهاً مسخوفاً له، ككُفْرِ الكافرين، ومعاصي العاصين،
ووجود المفسدين، وقد يكون معناها محبوباً مُرَضِياً لله -تعالى-، كوجود إيمان المؤمنين،
وطاعات الطائعين، ووجود رسل الله وعباده المخلصين.

الثانية: الإرادة الشرعية، وهي إرادة دينية يحبها الله، ويرضاها لعباده، وهي غير لازمة
التحقق.

فبفهم هاتين الإرادتين يدرك الإنسان أن كلاً من الخير والشر بيد الله -تعالى-، وهو من
تقديره -سبحانه وتعالى-: فالإرادة الشرعية هي المتضمّنة للمحبة والرضا، والإرادة الكونية
هي المشيئة الشاملة لجميع الحوادث.

**** فإرادة الله للشيء قد تقتضي محبته له، وقد لا تقتضي ذلك. فمثال ذلك:**

في قوله -تعالى-: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ
صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا} [الأنعام:125].

**** وتأمل قول الله -تعالى-: {...وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ
الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا
يُرِيدُ} [البقرة:253]، فالله -تعالى- لا يحب وقوع الاختلاف والافتتال، ولكنه شاءه -عز**

⁵² مجموع الفتاوى (385/7).

وجل-، وقدّر وقوعه، فهو سبحانه يفعل ما يريد، فلا يقع شيء في هذا الكون إلا بأمره وتقديره. (53)

*** فإن قالوا :

فكيف تستقيم الحكمة في تعذيب المكلفين على ذنوبهم على القول إن الله -تعالى- خلقها فيهم؛ فأين العدل في تعذيبهم على ما هو فاعله وخالفه فيهم؟

** فالجواب من وجوه :

(1) الأول : إنه -تعالى- إنما يعذبهم على ما أحدثوه من ذنوب وكان بمشيئتهم وقدرتهم، وكونه -تعالى- خالقاً أفعالهم لا يمنع أن تكون أفعالهم مضافة إليهم على الحقيقة؛ فلا تعارض بين الأمرين إلا عند من ضاق أفضه.

(2) الثاني :

إن ما يُبتلى به العبد من الذنوب، وإن كانت خلقاً لله -تعالى- فهي عقوبة للعبد على ذنوب قبلها، و﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم:41]، فالذنب يُكسب الذنب، ومن عقاب السيئة: السيئة بعدها، فالذنوب يُورث بعضها بعضاً، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:46].

ثانياً : الجبرية :

الجبرية: هم أتباع الجهم بن صفوان، ويرجع سبب التسمية بذلك إلى أنهم قالوا: إن العبد مُجبر على أفعاله، ولا اختيار له، ولا إرادة، ولا مشيئة، وإن الفاعل الحقيقي هو الله -تعالى-، وإن الله سبحانه أجبر العباد على الإيمان أو الكفر.

فالعبد عندهم مسير، لا خيار له أبداً؛ فهو كالريشة في مهبّ الريح، وعلى هذا فإنه يكفي في مسألة الحساب والجزاء أن يؤمن بالله -تعالى- بقلبه فحسب مَهْمَا فعل من الكفر والمعاصي، حتى الشريك. تعالى الله عما يقولون! فمن أشرك بالله عندهم ما دام عارفاً بالله فهو مؤمن!

⁵³ وفي المناظرة التي وقعت بين الأستاذ أبي إسحاق الإسفرايني والقاضي عبد الجبار المعتزلي: قال عبد الجبار في ابتدء جلوسه للمناظرة: سُبْحَانَ مَنْ تَنَزَّهَ عَنِ الْفَحْشَاءِ، فَقَالَ الْأُسْتَاذُ جَبِيلاً: سُبْحَانَ مَنْ لَا يَقَعُ فِي مُلْكِهِ إِلَّا مَا يَشَاءُ، فَقَالَ عَبْدُ الْجُبَّارِ: =أفشاء ربنا أن يُعصى؟! فقال الأستاذ: أيعصى ربنا فهراً؟! فقال عبد الجبار: أفرأيت إن منعني الهدى وقضى عليّ بالردى، أحسن إليّ أم أساء؟ فقال الأستاذ:

إن كان منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو له فيختص برحمته من يشاء؛ فأنقطع عبد الجبار.

وانظر طبقات الشافعية الكبرى (262/4).

فهؤلاء هم الجبرية الغلاة؛ لأنهم يرون أنه ما دام الفعل كله لله -تعالى-، فلا حساب على العباد إلا بما يتعلق بالمعرفة في القلب؛ فمن عرف الله سبحانه نجا، ومن أنكر الله هلك، والمرء وإن كان عاصياً لله فهو مُطيع لإرادته. (54)

ومذهب الجبرية من أخبث المذاهب وأبطلها؛ لأنه يجعل الله -تعالى- ظالماً لعباده. نعوذ بالله من الخذلان!

*ومن شبهات الجبرية :

قوله -تعالى-: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ} [الأنفال:17].

قالوا: هذا دليل على أن الفعل ليس للإنسان، وإنما هو لله؛ لأن الله هو الذي رمى!

**وقد أجاب أهل السنة عن هذه الشبهة:

بأن المعنى: ما أصبت الهدف، ولكن الله -تعالى- هو الذي وفق لإصابته؛ فأنت الذي رميت، والله -تعالى- هو الذي وفق للإصابة، بدليل: أنه -تعالى- أثبت لرسوله -صلى الله عليه وسلم- ذات الفعل، وأضافه له، فقال: "إذ رميت".

(2) وقالوا: إن العمل ليس سبباً في دخول الجنة؛ وذلك لما روى أبو هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُو أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ» قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْتَ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَّعَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ» 55

الرد على هذه الشبهة:

(1) الجواب:

قد بين الله -تعالى- أن الأعمال الصالحة أسباب دخول الجنة، كما قال: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل:32]، وقال -تعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا} [الكهف:107].

⁵⁴ وقد قرأ قارئ بحضرة بعض الجبرية: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ﴾ [ص: 75]، فقال:

هو الله منعه، ولو قال إبليس ذلك لكان صادقاً، وقد أخطأ إبليس الحجة، ولو كنت حاضراً لقلت له: أنت منعه.

=وسمع بعض الجبرية قارئاً يقرأ: ﴿ وَأَمَّا تُمُودٌ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت:17]، فقال: ليس من هذا

شيء، بل أضلهم وأعماهم.

⁵⁵ متفق عليه .

وأما الحديث «لا يدخل الجنة أحد منكم بعمله» فيبين أن دخولهم الجنة ليس بمجرد العمل، بل لا بد من عفو الله ورحمته -سبحانه وتعالى-، فهم دخلوها بأسباب أعمالهم، ولكن الذي أوجب ذلك: رحمته سبحانه وعفوه ومغفرته؛ فالباء المنفية في قوله -صلى الله عليه وسلم-: «لا يدخل الجنة أحد منكم بعمله» هي باء العوض، أي: ليست الجنة عوض العمل، والباء المثبتة في قوله -تعالى-: {ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون} هي باء السببية، أي: بسبب رحمة الله وعفوه -سبحانه وتعالى- (56).

**** ومن الرد على الجبرية:**

قوله -تعالى-: {مَنْكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ} [آل عمران: 152]، وقوله -تعالى-: {وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ} [البقرة: 272]، وقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» والأدلة كثيرة على أن فعل العبد صادرٌ باختياره، لكن هذا الاختيار تابع لمشيئة الله؛ لقوله -تعالى-: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [الإنسان: 30].

***** أما الدليل الواقعي:**

فإن كل إنسان يفعل الأفعال وهو لا يشعر أن أحداً يُجبره عليها، فيحضر إلى الدرس باختياره، ويغيب عن الدرس باختياره؛ ولهذا إذا وقع الفعل من غير اختيار لم يُنسب إلى العبد، بل يُرفع عنه إثمُه أو ثوابه .

***** وكذلك قد ردَّ علماء السنة على زعم الجبرية في احتجاجهم بالقدر على المعاصي:**

قال الإمام النووي :

"إن قيل: فالعاصي منا لو قال: هذه المعصية قدَّرها الله عليّ، لم يسقط عنه اللوم والعقوبة بذلك، وإن كان صادقاً فيما قاله؛ فالجواب: أن هذا العاصي باقٍ في دار التكليف،

⁵⁶ قال الإمام ابن القيم:

"أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن دخول الجنة ليس في مقابلة عملٍ أحدٍ، وأنه لولا تغمدُّ الله سبحانه لعبده برحمته لَمَّا أدخله الجنة، فليس عملُ العبد -وإن تنأهى- موجِباً -بمجرده- لدخول الجنة، ولا عَوْضاً لها؛ فإنَّ أعماله -وإن وقعت منه على الوجه الذي يحبه الله ويرضاه- فهي لا تُقاومُ نعمة الله التي أنعم بها عليه في دار الدنيا، ولا تُعادلُها، بل لو حاسبه لَوَقَعَتْ كُلُّهَا في مقابلة اليسير من نعمه، وتَبَقِيَ بقيَّة النعم مقتضيةً لشكرها، فلو عَدَّبه في هذه الحالة لَعَذَّبَهُ وهو غير ظالمٍ، ولو رَجَمَهُ لكانت رحمته خيراً من عمله". مفتاح دار السعادة لابن القيم ص 18.

جارٍ عليه أحكام المكلفين من العقوبة واللوم والتوبيخ وغيرها، وفي لومه وعقوبته زجرٌ له ولغيره عن مثل هذا الفعل، وهو محتاجٌ إلى الزجر ما لم يمُتْ". (57)

***قال ابن العثيمين :

"أفعال العباد كلها من طاعات ومعاصٍ كلها مخلوقة لله، ولكن ليس ذلك حُجَّةً للعاصي على فعل المعصية؛ وذلك لأدلة كثيرة، منها:

(1) أن الله أضاف عمل العبد إليه، وجعله كسباً له، فقال سبحانه: {الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} [غافر:17]، ولو لم يكن له اختيارٌ في الفعل وقدرةٌ عليه ما نُسِبَ إليه.

(2) أن الله أمر العبد ونهاه، ولم يكلفه إلا ما يستطيع؛ لقوله -تعالى-: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة:286]، وقوله سبحانه: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن:16]، ولو كان مُجْبِرًا على العمل لما كان مستطيعاً الفعل أو الكف؛ لأن المُجْبِرَ لا يستطيع التخلُّص.

(3) أن كل واحد يعلم الفرق بين العمل الاختياري والعمل الإجباري، وأنَّ الأول يستطيع التخلُّص منه.

(4) أن العاصي قبل أن يُقَدِّم على المعصية لا يدري ما قُدر له، وهو باستطاعته أن يفعل أو يترك؛ فكيف يسلك الطريق الخطأ ويحتجُّ بالقدر المجهول؟ أليس من الأخرى أن يسلك الطريق الصحيح ويقول: هذا ما قُدر لي؟!

(5) أن الله أخبر أنه أرسل الرسل لقطع الحُجَّة، قال سبحانه: {لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [النساء:165]، ولو كان القدر حُجَّةً للعاصي لما انقطعت بإرسال الرسل؛ ونعلم أن الله -سبحانه وتعالى- ما أمر ولا نهى إلا المستطيع للفعل والترك، وأنه لم يجبر على معصية، ولا اضطرَّه إلى ترك طاعة؛ قال الله -تعالى-: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة:286]، وقال الله -تعالى-: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن:16]، وقال سبحانه: {الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ} [غافر:17]؛ فدلَّ على أن للعبد فعلاً وكسباً، يُجْزَى على حسَنِهِ بالثواب، وعلى سيِّئِهِ بالعقاب، وهو واقع بقضاء الله وقدره. (58)

⁵⁷ مسلم بشرح النووي (8/ 454).

⁵⁸ شرح لُمة الاعتقاد (ص:93-94).

**** سؤال :**

مع اجتماع الشر في الجبرية والقدرية، أيهما أكثر شراً؟

الجواب: الأكثر شراً وضلالاً هم الجبرية. قال شيخ الإسلام :

** قول الأشاعرة :

وهؤلاء أيضاً ممن خالفوا أهل السنة في هذا الباب، حيث قالوا بما يُعرف بنظريّة (الكسب)، وقالوا: إن العبد فاعلٌ بالاختيار، وهو يفعلُ حقيقةً بقدره، لكن قدرته غيرُ مؤثّرة.

فوافق الأشاعرةُ أهلَ السنة في إثبات خلق الله أفعالَ العباد الاختياريةً والاضطراريةً، إلّا أنهم نسبوا فعل الإنسان الاختياريّ إليه كسباً لا خلقاً، وعزّفوا الكسب -كما قال شارح [أمّ البراهين] (ص45)-: "الكسب: مقارنَةُ القدرةِ الحادثةِ للفعلِ من غيرِ تأثيرٍ".

فبذلك أرادوا الفرار من قول الجبرية، فقالوا بالكسب، وهو إثبات اختيار و قدرة حادثة للعبد.

كما أنهم أرادوا الفرار من قول المعتزلة، فقالوا بعدم تأثير قدرة العبد الحادثة في الفعل، فلا يوجد تأثير للأسباب في مسبباتها.

ويقول السنوسي :

"وكما أن القدرة الحادثة لا أثر لها أصلاً في فعل من الأفعال، كذلك لا أثر للنار في شيء من الإحراق، بل أجرى الله العادة بإيجاد تلك الأمور عندها، لا بها؛ وقس على هذا ما يوجد من القطع عند السيّكين، والألم عند الجوع، والشبع عند الطعام". (59)

وقد خصّص الرازي فصلاً طويلاً في [المطالب العالية] (47/9) لبيان عدم تأثير قدرة العبد.

*وإن تعجب فعجب قولهم :

فقد نقل السنوسي عن ابن دهاق في [شرح الإرشاد(ص/148)] أن من أصناف الشرك: اعتقاد تأثير السبب في مسببه، كاعتقاد أن النار تُحرق، والطعام يُشبع!!

"من أثبت القدر واحتج به على إبطال الأمر والنهي فهو شر من أثبت الأمر والنهي ولم يُثبت القدر، وهذا متفقٌ عليه بين المسلمين وغيرهم من أهل الملل، بل بين جميع الخلق، فإنّ من احتج بالقدر وشهود الربوبية العامة لجميع المخلوقات ولم يفرّق بين المأمور والمحظور والمؤمنين والكفار وأهل الطاعة وأهل المعصية- لم يؤمن بأحد من الرسل ولا بشيء من الكتب، وكان عنده = آدم وإبليس سواءً، ونوح وقومه سواءً، وموسى وفرعون سواءً، والسابقون الأولون وكفار مكة سواءً! وهذا الضلال قد كثر في كثير من أهل التصوف والزهد".

*وقال -رحمه الله-: "ومعلوم عند كل من يؤمن بالله ورسوله أن المعتزلة والشيعية والقدرية المثبتين للأمر والنهي والوعد والوعيد- خيرٌ من يسوّي بين المؤمن والكافر والبرّ والفاجر والنبيّ الصادق والمنتبّي الكاذب وأولياء الله وأعدائه، بل هم أحقُّ من المعتزلة بالدم". مجموع الفتاوى (8/103).

⁵⁹ وانظر شرح أمّ البراهين (ص/219) وحاشية الدسوقي على أمّ البراهين (ص/185) وعقائد الأشاعرة (ص/249).

*الرد على الأشاعرة :

1- تفسير الأشاعرة للكسب بالافتران:

باطلٌ في أصله ؛ فالكسب في اللغة هو الطلب والجمع.

وكذلك في القرآن، كقوله -تعالى-: {أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا}[الأنعام:158]، وقوله: {فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ}[البقرة:79]؛ إذ استعمل في فعل كلٍّ من الصالحات والسيئات.

2- كما أن فرارهم من قول المعتزلة أوقعهم في الجبر المتوسط؛ وهذا ما دفع التفتازاني في (شرح المقاصد 263/4) إلى أن يقول: "فالإنسان: مضطرب في صورة المختار".

ونصَّ على مثله السنوسي بقوله: "والحقُّ أنَّ العبدَ مجبورٌ في قالبٍ مُختارٍ".⁽⁶⁰⁾

وقال الرازي في [محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين (ص 288)] بعد أن أورد إشكالات على نظرية الكسب: "وعند هذا التحقيق يظهر أنَّ الكسب اسمٌ بلا مُسمَّى".

وهذا حقيقة قولهم؛ إذ يلزم من مقارنة القدرة الحادثة للفعل القول بتكليف العاجز؛ لأن هذه المقارنة لا تؤثر أصلاً؛ إذ إنَّ إثبات الأشاعرة مقارنة القدرة الحادثة للفعل ليس بشيء، ولا طائل تحته، إذ لا مزية من إثباتها ما لم تؤثر في الفعل أصلاً.⁽⁶¹⁾

ويقول السنوسي: "ويسمَّى العبد عند خلق الله -تعالى- فيه هذه القدرة المقارنة للفعل: مختاراً".⁽⁶²⁾

فيتضح من كلامه: أن الكسب يُطلق على خلق القدرة في العبد؛ وعليه فهو اختيار لا معنى له.

لذلك أثبت شيخ الإسلام ابن تيمية في غير ما موضع: أن مسألة الكسب عند الأشاعرة لا حقيقة لها؛ إذ ما دام العبد ليس بفاعلٍ ولا له قدرة مؤثرة في الفعل، فالزعم بأنه كاسبٌ، وتسمية فعله كسباً: لا حقيقة له.

3- قولهم هذا خلافُ الشرع، والمشاهدة، ويلزم عليه لوازم باطلة، وحقيقته رجوعٌ إلى قول الجبرية، ويلزم عليه ما لزم على قول الجبرية، حتى اعتبر الجويني القول إنَّ قدرة العبد غير مؤثرة -وهو مذهب أصحابه الأشاعرة- تكذيباً للرسول، وإلغاءً لأوامر الشرع.

⁶⁰ وانظر شرح المقاصد (263/4) وشرح السنوسية الكبرى (ص/294).

⁶¹ محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين (ص/288).

⁶² شرح أم البراهين (ص/217).

ونقل الشهرستاني عنه أن "إثبات قدرة لا أثر لها بوجه، فهو كنفى القدرة أصلاً". (63)

4- قولهم بالكسب على هذا النحو مخالف لقول جماهير أهل السنة، فمذهب سلف الأمة وأئمتها وجمهور أهل السنة المثبتين للقدرة من جميع الطوائف أنهم يقولون: إن العبد فاعلٌ لفعله حقيقةً، وإن له قدرةً حقيقيةً واستطاعةً حقيقيةً (64).

****كما أنه يلزم عليه لوازم فاسدة كثيرة تفتح باباً للإلحاد والكفر بهذا الدين، منها:**

1 - أنه لو كان العبد غير فاعل على الحقيقة والله هو الفاعل حقيقةً، لَلزَمَ أن يكون المصلي الصائم العابد هو الله، وأن يكون الزاني السارق القاتل هو الله! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

2 - ولو كان العبد غير فاعل على الحقيقة، لكان تعذيبه على المعاصي: ظلماً وجوراً، ولكان إثابته على الطاعات: عبثاً.

3 - لو كان العبد غير فاعل حقيقةً لما كان لإرسال الرسل وإنزال الكتب والتبشير والإنذار معنًى؛ إذ لا طائع ولا عاصي على الحقيقة!

وكيف يكون العبد فاعلاً مختاراً، ثم يقال: إنه فاعلٌ مجازاً؟ فما وقع فعلٌ منه أصلاً!

وأى محذورٍ في أن يقال: إن العبد: فاعلٌ حقيقةً، والله: خالقُه وخالق قدرته وإرادته؟! فلا خالقَ إلا الله، وخالق السبب التام: خالقٌ للمسبب.

ثم إن هذا القول الباطل يعلم بطلانه كلُّ عاقلٍ بالمشاهدة، فنحن نرى زيدا من الناس يأكل ويشرب وينكح؛ فمن الذي يفعل ذلك حقيقةً؟! أو: ليس له فاعل حقيقةً؟!
{سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ}[النور:16].

وهذا القائل لو جاء زيدٌ هذا فضرِبَه وشتمَه وهتكَ عِرْضَه- هل يلومه على فعله، أم يعذره لأنه ليس فاعلاً حقيقةً؟!

قال أبو العباس ابن تيمية :

"والعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم. والعبد هو المؤمن والكافر، والبرّ والفاجر، والمصلي والصائم. وللعباد القدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، والله خالقهم، وخالق قدرتهم وإرادتهم؛ كما قال الله -تعالى-: {لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}[التكوير:28-29]. وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامّة القدرية الذين

⁶³ المثل والتحل (98/1).

⁶⁴ لوامع الأنوار البهية (1/312).

سَمَّاهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: مَجُوسَ هذه الأمة". (65)

***** وختاماً نقول :**

إن باب القدر باب من الخطورة بمكانٍ، فَلكم زلت فيه أقدامٌ، وضلت فيه أفهامٌ.

وصدق ابن القيم -رحمه الله- إذ يقول :

"القدر بحرٌ محيطٌ لا ساحلَ له، وقد سلك الناس في هذا الباب في كلِّ وادٍ، وخاضت فيه الفرق على تباينها واختلافها، وصنفت فيه الطوائف على تنوع أصنافها، وكلُّ قد اختار لنفسه مذهباً لا يعتقد الصواب في سواه،، وكلهم -إلا من اهتدى بالوحي- عن طريق الصواب مسدود، وباب الهدى في وجهه مسدود، قد قَمَشَ علماً غير طائل، وارتوى من ماء آجن" ، قد طاف على أبواب المذاهب، ففاز بأحسن الآراء والمطالب". (66)

أقول :

فعلى العبد إن قَصَرَ فهمه عن إدراك حقيقة القدر من كتاب الله والسنة وما سطره الراسخون من الأئمة، فعليه أن يقف على هذه الأصول الأربعة، فإنها -إن شاء الله- تَلْمِمْ له شتاتَ ذهنه، وتُرشدَه لما قدَّره الله -تعالى- بحكمته وإذنه.

***** وهذه الأصول هي : (كمال الملكية / كمال العذل / كمال الحكمة / كمال الاصطفاء).**

1)الأصل الأول : (كمال الملكية) :

قال -تعالى-: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [المائدة:120]، وقال الله -تعالى-: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ...} [آل عمران:26]، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ -إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ أَوْ حَزَنٌ-: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أُمَّتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ. أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ...» (67)،

هو ملكُ الناسِ حقاً، وكلهم عبده ومماليكه، فالملكُ ملكه، والخلقُ عبده، وهو ربُّهم، ونواصيهم بيده، يُصَرِّفُ أمورَ عباده كما يحبُّ ، ويقلبهم كما يشاء، {لا يُسألُ عما يفعلُ وهم يُسألون} [الأنبياء:23]، فالله -تعالى- لا يُسألُ عما يفعل؛ لِكَمالِ ملكيته وحكمته وعدله. إنَّ الخلقَ لا يَرْضَى الواحد منهم أن يراجعه أحدٌ إذا تصرف فيما يملكه؛ فكيف بمالكِ الملكِ؟!

⁶⁵ العقيدة الواسطية، اعتقاد الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة (ص/108).

⁶⁶ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والتعليل (1/44، 45).

⁶⁷ أخرجه أحمد (4318) وانظر السلسلة الصحيحة (199).

2)الأصل الثاني : كمال العدل :

قال -تعالى-: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [يونس:44]، وقال - تعالى-: {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف:49]، وقال النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي، إِنِّي حَزَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا...» (68)،

عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ اللَّهَ سَيَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُنْشَرُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصْرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنْتَ كَرُمٌ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظْلَمَكَ كَتَبْتِي الْحَافِظُونَ؟

فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَأَلَاكَ عُدْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٍ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَرِزْنَاكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ "، قَالَ:

«فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَتَقَلَّتِ الْبِطَاقَةُ، فَلَا يَنْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ» (69).

**فالله -تعالى- الذي وَسِعَتْ قَدْرَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ قد حَرَّمَ الظلم على نفسه؛ وذلك لكمال عدله -عز وجل-، فما مِنْ جِزَاءٍ قَضَاهُ اللَّهُ -تعالى- على عبد من عباده في الحال أو المَالِ إِلَّا وَعَدَلُ اللَّهُ -تعالى- ظاهرٌ بَيِّنٌ فِيهِ، {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا...} [الأنعام:115]، ومن شاكَّ وارتاب في ذلك فإنَّ هذا {مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة:90].

قال ابن كثير :

"ثم قال -تعالى-: {وَوُقِّضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الزمر:75]، أي: ونطقَ الكونُ أَجْمَعُهُ -ناطقُهُ وبهيمُهُ- لله رب العالمين بالحمد في حُكْمِهِ وَعَدْلِهِ؛ ولهذا لم يُسندِ القول إلى قائلٍ، بل أطلقه؛ فدلَّ على أن جميع المخلوقات شَهِدَتْ له بالحمد. (70)

قال ابن القيم :

"{وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، فحدَفَ فاعِلَ القولِ لِأَنَّهُ غَيْرُ مَعْيِنٍ، بل كُلُّ أَحَدٍ يَحْمَدُهُ عَلَى

68 أخرجه مسلم (2577).

69 أخرجه الترمذي (2639) وقال «هذا حديث حسن غريب». وانظر صحيح الجامع (1776) والسلسلة الصحيحة (135).

70 تفسير القرآن العظيم (127/7).

ذلك الحكم الذي حكم فيه، فيحمده أهل السماوات وأهل الأرض، والأبرار والفجار، والإنس والجن، حتى أهل النار. قال الحسن أو غيره: "لقد دخلوا النار وإنَّ حَمْدَهُ لفي قلوبهم، ما وجدوا عليه سبيلاً". (71)

*** ألا ترى أنهم ما حَمِدُوا ربهم إلا لَمَّا رأوا آثار عدله فيهم؟!!

(3) الأصل الثالث : كمال الحكمة :

قله -تعالى- الحجة البالغة، وله الحكمة الكاملة، ذكرَ - تعالى - حكمته فيما يزيد عن ثمانين موضعاً من كتابه باسمه وصفته.

فهو (الحكيم) الذي يضع الأشياء مواضعها، ويُنزلها منازلها اللائقة بها في خلقه وأمره، وهو ذو حكمة في قَسْمه وحُكْمه، في هدايته وإضلاله لخلقه.

الله أعلم حيث يجعل هدايته، هو الحكيم في أحكامه القدرية، وأحكامه الشرعية، وأحكامه الجزائية، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حِكْمَةً وَحُكْمًا؟!!

هدى هذا بقدره، ولعلمه أنّ قلبه أرض طيبة تقبل الهدى وتتنفع به، وأضلّ ذلك بقدره،

ولعلمه أنّ قلبه أرض خبيثة لا تقبل الهدى، ف {أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ} [الجمانية:23]،

خذله عن مَحَجَّة الطريق وسبيل الرشاد في سابق علمه على علم منه بأنه لا يهتدي ولو جاءته كل آية! (72).

{وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ} [الأعراف:58]؛ فكَذَلِكَ الْقُلُوبُ لَمَّا خَاطَبَهَا نِدَاءُ الْإِيمَانِ وَافَى مَحَلًّا مَحَبًّا فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ، وَوَافَى مَحَلًّا سِبَاخًا فِي قَلْبِ الْكَافِرِ.

(4) الأصل الرابع : كمال الاصطفاء :

احمدُ ربك أن عافاك وهداك واصطفاك: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ} [القصص:68]. واستشعر فضله عليك: {مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} [يوسف:38].

{قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [آل عمران:73-74]. قال -تعالى- في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ...» (73).

⁷¹ روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص/65).

⁷² جامع البيان في تأويل القرآن (76/22).

⁷³ أخرجه مسلم (2577).

فاللهم ربنا لك الحمد عدد خلقك، ورضا نفسك، وزنة عرشك، ومداد كلماتك، اللهم لولا فضلك علينا ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا، فأنزلن سكينتنا علينا، وثبتت الأقدام إن لاقينا. {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ...}{[الأعراف:43]، فاللهم أتمم نعمتك علينا حتى نسمع ما أخبر به رب العزة {وَأُوذُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُتَمَوُّهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}{[الأعراف:43].

****تم بحمد الله****

ملاحظات الأخ:

مراجعة جميع الترقيعات والتقسيمات والتنسيقات

هناك عزو حضرتك جعلته في المتن، هل تريده في الحاشية؟ مثل: (شرح المقاصد 263/4) (انظر: قاموس المحيط #ص 167)

لن أعزُ آيات المقدمة .

{إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} آية متكررة فلم أذكر عزوها.

النقط في الآيات ...

شيخنا حضرتك تنسخ من أكثر من مصحف؟ مرة تنسخ التنوين على الألف ومرة تنسخه قبل الألف.

لم أضع == في الحواشي